

فن الاستماع في الإسلام ۞ أدب نبوي يهذب الحوار ويمنع الخصومات



الأحد 23 أغسطس 2026 03:00 م

يعد الاستماع الجيد من أهم آداب الحوار التي حث عليها الإسلام، إذ لا يقتصر التواصل بين الناس على القدرة على الحديث وعرض الأفكار، بل يبدأ قبل ذلك بمهارة الإنصات وفهم الآخرين ۞ فكثير من الخلافات والمشاحنات تنشأ بسبب التسرع في الرد، أو مقاطعة المتحدث قبل إكمال فكرته، أو محاولة فرض الرأي دون منح الطرف الآخر فرصة للتعبير ۞

وفي زمن كثرت فيه النقاشات وتعددت وسائل التواصل، أصبحت الحاجة أكبر إلى استعادة قيمة الاستماع؛ باعتباره وسيلة لفهم الناس، واحترام أفكارهم، والوصول إلى الحق بعيداً عن التعصب والانتصار للنفس ۞

مقاطعة الآخرين ۞ سلوك يضعف الحوار

كثيراً ما يقع بعض الناس في مقاطعة الآخرين أثناء الحديث، سواء في المجالس أو الاجتماعات أو النقاشات العلمية والاجتماعية ۞ وقد يسمح الشخص لغيره بإكمال حديثه ما دام لا يختلف معه، لكنه عندما يسمع رأياً يخالفه أو يجد لديه تعليقاً أو اعتراضاً، يسارع إلى قطع كلام المتحدث قبل أن يتم فكرته ۞

ولا يعني هذا السلوك دائماً انتقاصاً من قدر الطرف الآخر أو رغبة متعمدة في الإساءة إليه، لكنه غالباً يكون نتيجة سيطرة فكرة الشخص على ذهنه، ورغبته في إحيال رأيه بأي طريقة، مما يحرم الحوار من الاستفادة من تجارب وأفكار الآخرين ۞

وقد يؤدي هذا الأسلوب إلى إثارة الضغائن وسوء الفهم، بينما الحوار الناجح يقوم على إعطاء كل طرف فرصته كاملة، ثم مناقشة الأفكار بهدوء واحترام ۞

النبي صلى الله عليه وسلم ۞ النموذج الأعلى في حسن الاستماع

عَلَّمَ النبي صلى الله عليه وسلم أمته أن الاستماع خلق رفيع، وأن الإنسان لا ينبغي أن ينساق وراء حب الكلام أو الرغبة في فرض رأيه، بل يعرض فكرته بأدب، ويستمع إلى الآخرين ليستفيد مما لديهم ۞

ومن أعظم الأمثلة على ذلك حوار النبي صلى الله عليه وسلم مع عتبة بن ربيعة، حين طلبت منه قريش أن يكلم النبي صلى الله عليه وسلم محاولاً إقناعه بترك دعوته ۞

فقد جاء في «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» للسيوطي (7/311) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن قريشاً اجتمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عتبة بن ربيعة: دعوني حتى أقوم إلى محمد أكلمه، فإني عسى أن أكون أرفق به منكم ۞

فجلس عتبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: يا ابن أخي، إنك أوسطنا بيتاً وأفضلنا مكاناً، وقد أدخلت في قومك ما لم يدخل رجل على قومه قبلك، ثم عرض عليه المال والملك والشرف والطب، محاولاً إبعاده عن دعوة الإسلام ۞

فلما انتهى عتبة من كلامه، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أفرغت يا أبا الوليد؟»

قال: نعم ۞

فقرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم سورة فصلت حتى بلغ موضع السجدة فسجد، وعتبة يستمع حتى انتهى النبي صلى الله عليه وسلم من قراءته

ثم عاد عتبة إلى قومه وهو لا يجد جواباً لما سمع، وقال لهم: «يا معشر قريش، قد كلمته بالذي أمرتموني به حتى إذا فرغت، كلمني بكلام والله ما سمعت أذناي بمثله قط، فما دريت ما أقول له».

وهنا يظهر أثر حسن الاستماع؛ فقد استمع النبي صلى الله عليه وسلم إلى كلام رجل جاء معارضاً، ولم يقاطعه أو يمنعه من عرض حجته، بل تركه حتى انتهى ثم أجابه بكلام الله تعالى

الاستماع عند الاختلاف والخصومة

لم يكن حسن الاستماع مقتصراً على الحوارات العادية، بل ظهر كذلك في القضاء والتعامل مع أصحاب الحقوق

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد (6/268) والبخاري (1309) بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترى من رجل من الأعراب جزوراً بوسق من تمر الذخرة، فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيته لم يجد التمر

فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: «يا عبد الله، إنا قد ابتعنا منك جزوراً بوسق من تمر الذخرة، فالتمسناه فلم نجده».

فقال الأعرابي: «واغدراه!»

فهم الناس به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «دعوه، فإن لصاحب الحق مقالاً».

ثم كرر النبي صلى الله عليه وسلم توضيح الأمر، فلما لم يفهم الأعرابي، أرسل إلى خولة بنت حكيم رضي الله عنها، فوجد عندها التمر، فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم للأعرابي حتى أدى إليه حقه

فلما مر الأعرابي بالنبي صلى الله عليه وسلم قال: «جزاك الله خيراً، فقد أوفيت وأطيبت».

وهذا الموقف يوضح أن صاحب الحق له حق التعبير، وأن الاستماع إليه قبل الحكم عليه من أخلاق الإسلام

الاستماع خلق قرآني

جعل الله تعالى حسن الاستماع من صفات أهل الهداية والعقل، فقال سبحانه: (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) (الزمر: 18).

فالاستماع ليس مجرد سكوت، بل هو إنصات واعٍ يهدف إلى فهم الكلام وتمييز الحق من غيره

ولهذا عرف العلماء والأدباء قيمة هذه المهارة، حتى قال أسماء بن خارجة الغزاري: «ما غلبنى أحد قط غلبة رجل يصغي إلى حديثي».

(التاج في أخلاق الملوك للجاحظ، ص 58).

من فقه الاستماع

من آداب الاستماع ألا يقطع الإنسان حديث غيره، بل ينتظر حتى ينتهي المتحدث ثم يعلق أو يناقش

وقد قيل: تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن المقال، ولا تقطع على أحد حديثاً

فالاستماع السيئ يؤدي إلى سوء الفهم، ولذلك قيل: «أساء سمعاً فأساء إجابة».

كما أن سرعة الحكم قبل اكتمال الكلام قد تجعل الإنسان يرد على شيء لم يقصده المتحدث أصلاً

ومن الحكم التي قيلت في ذلك: إن الله تعالى خلق للإنسان لساناً واحداً وأذنين، ليكون سماعه ضعف كلامه

وقال الشاعر:

اسْمَعْ مُخَاطَبَةَ الْجَلِيسِ وَلَا تَكُنْ *** عَجْلاً بِنُطْقِكَ قَبْلَمَا تَتَفَهَّمْ

لَمْ تُعْطَ مَعَ أُذُنِكَ نُطْقاً وَاحِداً *** إِلَّا لَتَسْمَعَ ضَعْفَ مَا تَتَكَلَّمْ

خطوات عملية لتحسين مهارة الاستماع

- النظر إلى المتحدث وعدم صرف البصر عنه

- إظهار الاهتمام والانتباه أثناء الحديث

- عدم الانشغال بتجهيز الرد قبل فهم كلام الطرف الآخر

- عدم التأثير بالأحاديث الجانبية أثناء الحوار

- استخدام الإشارات التي تدل على المتابعة مثل الابتسامة أو هز الرأس

- السؤال عما يصعب فهمه قبل إصدار الأحكام

- طرح الاختلاف في صورة سؤال للوصول إلى الفهم

- الابتعاد عن النقد المباشر وتقديم الرأي على هيئة اقتراح

- الثناء على المتحدث قبل التعليق على كلامه

- مناقشة الأفكار دون إصدار أحكام على الأشخاص

وختاماً يبقى حسن الاستماع من الأخلاق التي تجمع القلوب وتمنع الخصومات، وهو خلق نبوي يدل على الحكمة ورفي التعامل فليس الهدف من الحوار أن ينتصر الإنسان لرأيه، بل أن يصل الجميع إلى الفهم الصحيح، وأن تتكامل الأفكار بالاحترام والإنصاف

ومن سار على هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الاستماع والإنصات، امتلك مفتاحاً مهماً للتواصل الناجح وبناء العلاقات القائمة على الرحمة والتقدير